



الْمُلْكَةُ الْعَرَبِيَّةُ السُّعُودِيَّةُ
الجَمِيعَةُ اِلْسَلَامِيَّةُ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ
مَرْكَزُ شُؤُونِ الدِّرْعَةِ

٧٦

الوسائل المقيدة للحياة السعيدة

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي

المتوفى ١٣٧٦هـ

رحم الله

١٤٠٩هـ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمِدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ . وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ رُورِ
أَنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضْلِلُ لَهُ ، وَمَنْ يَضْلِلُ فَلَا
هَادِي لَهُ .

أَمَا بَعْدَ : فَمَا لَا شَكَ فِيهِ وَلَا رِيبٌ أَنَّ السَّعَادَةَ هِيَ مِنْ شُوَدِ كُلِّ
إِنْسَانٍ ، وَمُخْطُوبٌ كُلِّ ذِي حُسْنٍ وَعِرْفَانٍ ، فَجَمِيعُ النَّاسِ يَنْشَدُونَ
السَّعَادَةَ وَيَرْجُونَهَا ، فَهُنَّ غَايَتِهِمْ وَمَنَاهُمْ ، وَهِيَ دِيدَنُهُمْ وَنِجْوَاهُمْ .
وَلَكِنْ كَيْفَ يُظْفَرُ بِالْمُطْلُوبِ ، وَيُتَحَصَّلُ عَلَى الْمَرْغُوبِ ؟
تَفَاوتُ أَفْهَامِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ ، وَتَغَيُّرُتْ سُبُلُهُمْ فَكُلُّ فِي طَرِيقٍ
سَالِكٍ .

بعضُهُمْ يَبْحَثُ عَنِ السَّعَادَةِ فِي جَمْعِ الْمَالِ ، وَاسْتِحْوَادِهِ مِنْ كُلِّ
الْوِجْهِ ، وَيُرَى أَنَّ السَّعِيدَ مَنْ كَثُرَ مَالُهُ .

وَبَعْضُهُمْ يَبْحَثُ عَنْهَا فِي الْلَّهُو وَاللَّعْبِ ، وَشُغْلِ الْأَوْقَاتِ
وَإِضَاعَتِهَا فِيمَا لَا نَفْعَ فِيهِ .

وَبَعْضُهُمْ يَبْحَثُ عَنْهَا فِي ارْتِكَابِ الْمُحْرَمَاتِ وَارْتِيَادِ الْمُنْكَرَاتِ . مِنْ
شُرْبِ خَمْرٍ وَزِنَادِ سَمَاءِ آلاتِ الْهُوَ وَغَنَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَبَعْضُهُمْ يَبْحَثُ عَنْهَا فِي وَبَعْضُهُمْ الْكُلُّ
يَنْشَدُ وَيَبْحَثُ ، كَثُرَتْ هُمُومُهُمْ ، وَعَظَمَتْ غُمُومُهُمْ ، وَأَشْرَبَتْ بِالْأَحْزَانِ
قُلُوبُهُمْ .

ولكن كيف الحصول على السعادة؟

إن الله عز وجل خالق هذا الكون وموجده شاء وقرر أن السعادة لا تكون إلا في سلوك طريقه واتباع هداه، وأن الشقاء لمن عصاه وأعرض عن ذكره وهداه.

قال تعالى : ﴿فَإِمَا يَأْتِينَكُم مِّنْ هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدًى فَلَا يُضْلَلُ
وَلَا يُشْقَى ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشَرُهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَعْمَى ، قَالَ رَبُّنَا لَمْ حَسِرْتِنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتَ بَصِيرًاً ، قَالَ
كَذَّلِكَ أَتَتْكَ آيَاتِنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَّلِكَ الْيَوْمَ تَنْسِى ، وَكَذَّلِكَ نَجْزِي مِنْ
أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَدُ وَأَبْقَى﴾^(١).

وقال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذِكْرِنَا أَوْ أَنْثِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَنَحْيِيهِ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).
فَهُدِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ لِلسُّعَادَةِ، وَحَقَّ لَهُمْ طَرِيقُ الْخَلاصِ
وَالنَّجَاهَةِ، وَجَنَّبُوهُمْ طَرِيقَ الضَّنْكِ وَالشَّقَاءِ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مِنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

وَهَذِهِ الرِّسَالَةُ التِّي بَيْنَ يَدِيكَ قَدْ أَوْضَحَ فِيهَا مَوْلُفُهَا، طَرِيقُ
السُّعَادَةِ وَسُبُلُهَا، وَبَيْنَ طَرِيقِ تَلَافِي الْهَمُومِ وَالْغَمُومِ وَالْأَحْزَانِ.

فَهِيَ عَلَى صَغْرِ حَجْمِهَا عَظِيمُ نَفْعُهَا، وَالْحَاجَةُ مَاسَةٌ إِلَيْهَا لِكُلِّ
إِنْسَانٍ، لَأَسِيَّا فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ التِّي كَثُرَتْ فِيهَا الْفَتْنَ وَعَظَمَتْ فِيهَا
الْمَحْنَ .

(١) طه / ١٢٣ - ١٢٧.

(٢) النحل / ٩٧.

فنسأله الكرييم أن ينفع بها، ويأجر مؤلفها، ويغمد برحمته،
ويرحمنا معه، ويسلك بنا طريق السعادة، ويجنبنا طريق الشقاء، إنه
على كل شيء قادر، وبالإجابة جدير.

ترجمة موجزة للمؤلف(★)

هو الشيخ العالمة الفقية الأصولي المفسر الورع الزاهد، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي التميمي.

ولد في عنيزه بالقصيم سنة ١٣٠٧هـ ، وتوفيت أمه وهو ابن أربع سنين، ثم توفي والده وهو ابن سبع سنين، وكان والده عالماً وإماماً مسجداً، ومن الملازمين للعبادة.

ولما توفي والده صار يتيم الأبوين، وكانت زوجة والده تحنو عليه وتوليه عناء فائقة، وكذلك أخيه حمد.

وقد نشأ رحمه الله نشأة صلاح وتقى، فكان منذ نشأته صالحًا مثاراً للاعجاب وأنظار الناس محافظاً على الصلوات الخمس مع الجماعة.

طلبه للعلم وشيوخه :

وكان منذ حداثة سنّه حريصاً أشد الحرص على طلب العلم وتحصيله، صارفاً أوقاته في ذلك.

(★) مصادر الترجمة :

- ١ - علماء نجد خلال ستة قرون للشيخ عبد الله البسام ٤٢٢/٢ .
- ٢ - روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين للشيخ محمد بن عثمان القاضى ٢١٩/٢ .
- ٣ - مشاهير علماء نجد للشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ ٣٩٢ .
- ٤ - آخر كتاب المختارات الجلية لابن سعدي ، طبعة المدى ، ترجمة بقلم الشيخ سليمان بن عبد الكريم السناني .
- ٥ - علماء آل سليم وتلامذتهم للشيخ صالح بن سليمان العمري ٢٩٥/٢ .

حفظ القرآن وهو في الحادية عشرة من عمره، ثمقرأ في علم الحديث والمصطلح والأصول والفروع والتفسير، وأخذ العلم عن مشائخ كثيرين منهم : الشيخ إبراهيم بن حمد الجاسر والشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل، والشيخ صالح بن عثمان القاضي، والشيخ صعب التويجري، والشيخ محمد محمود الشنقيطي ، والشيخ على بن محمد السناني ، والشيخ محمد بن عبد العزيز المانع وغيرهم .

وكان مشائخه كلُّهم معجبين بفرط ذكائه ونبيله واستقامته، حتى إن زملاءه لما رأوا تفوقه عليهم ونبوغه، تتلمذوا عليه، وصاروا يأخذون العلم عنه وهو في سن مبكرة.

وقد كان له عنابة فائقة بكتبشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمة الله، فقرأ أكثرها وتأثر بها، وكان يثنى عليهما ويوصي بقراءة كتبهما وله قصيدة طويلة في ذلك منها :

يا طالباً لعلوم الشرع مجتهداً
يُبغي انكشف الحق والعرفان
احرص على كتب الإمامين اللذين
من هما المحكُّ لهذه الأزمان
العالمين العاملين الحافظين
من المعرضين عن الخطام الفانى

إلى أن قال :

يُعزى إلى تيمية الحراني
بحر العلوم العالم الرباني
غير العلوم كثيرة الألوان
من كل فاكهة بها زوجان
أعني بهشيخ الورى وإمامهم
والآخر المدعوب ابن القيم
فيهما اللذان أودعاني كتابهم
فيهما الفوائد والمسائل جمعت

مؤلفاته :

بلغت مؤلفاته رحمه الله . نيفاً وأربعين مؤلفاً منها :

- ١ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان .
- ٢ - تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن .
- ٣ - الدرة البهية شرح القصيدة التائية .
- ٤ - التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة .
- ٥ - الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية .
- ٦ - توضيح الكافية الشافية .
- ٧ - تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصي米 في أغلاله .
- ٨ - طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول .
- ٩ - الرياض الناصرة والحدائق النيرة الظاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة .
- ١٠ - بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار .
- ١١ - الوسائل المفيدة للحياة السعيدة (★) .
- ١٢ - المختارات الجليلة من المسائل الفقهية .
- ١٣ - منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين .
- ١٤ - الخطب المنبرية على المناسبات العصرية .

(★) وهي هذه الرسالة التي بين يديك ، وسبق أن طبعت عدة مرات ، وقد اعتنيت بهذه الطبعة ، فعززت الآيات إلى أمكانها ، وخرجت الأحاديث باختصار ، وعلقت على مواطن يسيرة منها ، وأسأل الله الكريم أن يجعل عملي خالصاً لوجهه إنه سميع مجيب .

وغيرها من الكتب والرسائل المتنوعة . وجميع مؤلفاته
مطبوعة إلا يسيراً منها ، ومعظمها طبع في حياته رحمه الله .

وفاته :

كان قد أصيب قبل وفاته بخمس سنوات تقريباً بمرض
ضغط الدم وتصلب الشرايين ، فسافر للعلاج في لبنان ، ثم عاد
بعد شهر وقد شفاء الله ، وبعد عودته إلى عنيزه باشر فيها
التدريس والافتاء والخطابة وتصنيف الكتب ، فعاوده المرض مرة
أخرى .

وفي ليلة الأربعاء الموافق ١٣٧٦/٦/٢٢ هـ ، أصيب
بإغماء شديد لازمه أكثر يومه ، حتى توفاه الله قرب طلوع الفجر
من ليلة الخميس ١٣٧٦/٦/٢٣ هـ ، ودفن في مقبرة الشهوانية
بعنيزة فرحمه الله رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جناته .

وكتبه :

عبد الرزاق العباد

المدينة في ١٤٠٧/٧/٢٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له الحمد كله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وسلم.

أما بعد : فإن راحة القلب وطمأنينة وسروره، وزوال همومه وغمومه، هو المطلب لكل أحد، وبه تحصل الحياة الطيبة، ويتم السرور والابتهاج، ولذلك أسبابٌ دينيةٌ، وأسبابٌ طبيعيةٌ وأسبابٌ عميلةٌ، ولا يمكن اجتماعها كلها إلا للمؤمنين، وأما من سواهم فإنهما وإن حصلت لهم من وجيهٍ وسببٍ يجاهد عقلاؤهم عليه فاتتهم من وجهٍ أدنى وأثبتت وأحسن حالاً ومملاً .

ولكنني سأذكر برسالتى هذه ما يحضرني من الأسباب لهذا المطلب الأعلى ، الذي يسعى له كل أحد .

فمنهم من أصاب كثيراً منها فعاش عيشةً هنيةً، وحيي حياةً طيبةً، ومنهم من أخفق فيها كلها فعاش عيشة الشقاء، وحيي حياة التعسّاء، ومنهم من هو بين بين، بحسب ما وفق له ، والله الموفق المستعان به على كل خير، وعلى دفع كل شر.

(فصل)

وأعظم الأسباب لذلك وأصلها وأسُها هو الإيمان والعمل الصالح . قال تعالى :

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنسى وهو مؤمن فلنحيئه حياة طيبة ولنجزئهم أجرهم بإحسن ما كانوا يعملون ﴾^(١) .

فأخبر تعالى ، ووعد من جمع بين الإيمان والعمل الصالح ، بالحياة الطيبة في هذه الدار ، وبالجزاء الحسن في هذه الدار وفي دار القرار .

وبسبب ذلك واضح ، فإن المؤمنين بالله الإيمان الصحيح ، المثمر للعمل الصالح المصلح للقلوب والأخلاق والدنيا والآخرة ، معهم أصول وأسس يتلقون فيها جميع ما يرد عليهم من أسباب السُّرور والابتهاج ، وأسباب القلق والهم والأحزان .

يتلقون المحاب والمصار بقبول لها ، وشكر عليها ، واستعمال لها فيما ينفع ، فإذا استعملوها على هذا الوجه ، أحدث لهم من الابتهاج بها ، والطمع في بقائها وبركتها ، ورجاء ثواب الشاكرين ، أموراً عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرات التي هذه ثمارتها .

ويتلقون المكاره والمضار والهم والغم ، بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته ، وتخفيض ما يمكنهم تخفيضه ، والصبر الجميل لما ليس لهم عنه بد وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره من المقاومات النافعة ، والتجارب والقوة ، ومن الصبر واحتساب الأجر والثواب أموراً عظيمة تتضمن حل

(١) التحل / ٩٧

معها المكاره، وتحل محلها المسار والأمال الطيبة، والطمع في فضل الله وثوابه.

كما عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا في الحديث الصحيح أنه قال : «عجبًا لأمر المؤمن إنْ أمره كله خيرٌ إنْ أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»^(١). فأخبر صلى الله عليه وسلم أن المؤمن يتضاعف غنمه وخيره وثمرات أعماله في كل ما يطرقه من السرور والمكاره.

لهذا تجد اثنين تطرقهما نائبة من نوائب الخير أو الشر في تفاوتان تفاوتاً عظيماً في تلقيهما، وذلك بحسب تفاوتها في الإيمان والعمل الصالح.

هذا الموصوف بهذين الوصفين يتلقى الخير والشر بما ذكرناه من الشكر والصبر وما يتبعهما، فيحدث له السرور والابتهاج، وزوال الهم والغم والقلق، وضيق الصدر، وشقاء الحياة، وتتم له الحياة الطيبة في هذه الدار.

والآخر يتلقى المحابي بأشر وبطرو طغيان، فتنحرف أخلاقه ويتلقاها كما تتلقاها البهائم بجشع وهلع ، ومع ذلك فإنه غير مستريح القلب، بل مشته من جهات عديدة، مشتت من جهة خوفه من زوال محبوباته، ومن كثرة المعارضات الناشئة عنها غالباً، ومن جهة أن النفوس لا تقف عند حد، بل لا تزال متشوفة لأمور أخرى، قد تحصل وقد لا تحصل، وإن حصلت على الفرض والتقدير فهو أيضاً قلق من الجهات المذكورة .

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٢٩٥ ، وأحمد ٤/٣٣٣ ، والدارمي ٢/٣١٨ من حديث صحيب رضي الله عنه .

ويتلقي المكاره بقلق وجزع وخوف وضجر، فلا تسأل عن ما يحدث له من شقاء الحياة، ومن الأمراض الفكرية والعصبية، ومن الخوف الذي قد يصل به إلى أسوأ الحالات وأفظع المزعجات، لأنه لا يرجو ثواباً، ولا صبر عنده يسليه ويهون عليه.

وكل هذا مشاهد بالتجربة، ومثلُ واحدٌ من هذا النوع، إذا تدبرته ونزلته على أحوال الناس، رأيت الفرق العظيم بين المؤمن العامل بمقتضى إيمانه، وبين من لم يكن كذلك، وهو أن الدين يحث غاية الحث على القناعة برزق الله، وبما آتى العباد من فضله وكرمه المتنوع.

فالمؤمن إذا ابتي بمرض أو فقر، أو نحوه من الأعراض التي كل أحد عرضة لها، فإنه بإيمانه وبما عنده من القناعة والرضا بما قسم الله له، تجده قرير العين لا يتطلب بقلبه أمراً لم يقدّر له، ينظر إلى من هو دونه، ولا ينظر إلى من هو فوقه، وربما زادت بهجته وسروره وراحته على من هو متحصل على جميع المطالب الدنيوية إذا لم يؤت القناعة.

كما تجد هذا الذي ليس عنده عمل بمقتضى الإيمان، إذا ابتي بشيء من الفقر أو فقد بعض المطالب الدنيوية، تجده غاية في التعasse والشقاء.

ومثل آخر: إذا حدثت أسباب الخوف وألمت بالإنسان المزعجات، تجد صحيح الإيمان ثابت القلب، مطمئن النفس، متمنكاً من تدبيره، وتسويقه لهذا الأمر الذي داهمه، بما هو في وسعه من فكر وقول وعمل، قد وطن نفسه لهذا المزعج، الملم بهذه أحوال تاريخ الإنسان وثبت فؤاده.

كما تجد فاقد الإيمان بعكس هذه الحال، إذا وقعت المخاوف انزعج لها ضميره، وتتواتر أعصابه، وتشتت أفكاره، وداخله الخوف والرعب، واجتمع عليه الخوف الخارجي، والقلق الباطني الذي لا يمكن التعبير عن كنهه، وهذا النوع من الناس إن لم يحصل لهم بعض الأسباب الطبيعية التي تحتاج إلى تمرين كثير، انهارت قواهم وتتوترت أعصابهم، وذلك لفقد الإيمان الذي يحمل على الصبر، خصوصاً في الحال الحرجية، والأحوال المزحنة المزعجة.

فالبر والفاجر، والمؤمن والكافر يشتراكان في جلب الشجاعة الاكتسافية، وفي الغريزة التي تلطف المخاوف وتهونها، ولكن يتميز المؤمن بقوة إيمانه وصبره وتوكله على الله واعتماده عليه واحتسابه لثوابه أموراً تزداد بها شجاعته، وتخفف عنه وطأة الخوف وتهون عليه المصاعب، كما قال تعالى :

﴿إِن تَكُونُوا تَأْمُلُونَ فَإِنَّمَا يَأْمُلُونَ كَمَا تَأْمُلُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾^(١)، ويحصل لهم من معونة الله ومعينه الخاص ومدده ما يبعثر المخاوف.

وقال تعالى : ﴿وَاصْبِرْ وَا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢).

ومن الأسباب التي تزيل الهم والغم والقلق، الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل، وأنواع المعروف، وكلها خير وإحسان، وبها يدفع الله عن البر والفاجر الهموم والغموم بحسبها، ولكن للمؤمن منها أكمل الحظ والنصيب، ويتميز بأن إحسانه صادر عن إخلاص واحتساب

(١) النساء / ١٠٤.

(٢) الأنفال / ٤٦.

لثوابه فيهون الله عليه بذل المعروف لما يرجوه من الخير، ويدفع عنه المكاره بإخلاصه واحتسابه، قال تعالى :

﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاه الله فسوف يؤتى به أجرًا عظيمًا﴾^(١).

فأخبر تعالى أن هذه الأمور كلها خير من صدرت منه، والخير يجلب الخير، ويدفع الشر، وأن المؤمن المحتسب يؤتى به أجرًا عظيمًا ومن جملة الأجر العظيم زوال الهم والغم والأكدار ونحوها.

(١) النساء / ١١٤ .

(فصل)

ومن أسباب دفع القلق الناشئ عن توتر الأعصاب، واشتغال القلب ببعض المكدرات : الاشتغال بعمل من الأعمال، أو علم من العلوم النافعة، فإنها تلهي القلب عن اشتغاله بذلك الأمر الذي أقلقه، وربما نسى بسبب ذلك الأسباب التي أوجبت له الهم والغم، ففرحت نفسه، وازداد نشاطه، وهذا السبب أيضاً مشترك بين المؤمن وغيره.

ولكن المؤمن يتميز بإيمانه وإخلاصه وإحتسابه في اشتغاله بذلك العلم الذي يتعلم أو يعلم، ويعمل الخير الذي يعمله إن كان عبادة فهو عبادة، وإن كان شغلاً دنيوياً أو عادة دنيوية أصحابها النية الصالحة، وقد الاستعانة بذلك على طاعة الله، فلذلك أثره الفعال في دفع الهم والغموم والأحزان، فكم من إنسان ابتلي بالقلق وملازمة الأكدار، فاحتلت به الأمراض المتنوعة فصار دواؤه الناجح، نسيان السبب الذي كدره وأقلقه واحتلاله بعمل من مهامه، وينبغي أن يكون الشغل الذي يشغل فيه مما تأنس به النفس وتستيقنه، فإن هذا أدلى لحصول هذا المقصود النافع والله أعلم.

وما يدفع به الهم والقلق : اجتماع الفكر كله على الاهتمام بعمل اليوم الحاضر، وقطعه عن الاهتمام في الوقت المستقبل، وعن الحزن على الوقت الماضي، وهذا استعاد النبي صلى الله عليه وسلم من الهم والحزن^(١).

(١) كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل والجبن والبخل، وضعف الدين، وغلبة الرجال». أخرجه البخاري ١٧٨/١١، وأحمد ٣/٢٢٠، وأبوداود ٢/٩٠، والترمذى ٥/٥٢٠، والنمسائي

فالحزن على الأمور الماضية التي لا يمكن ردها ولا استدراكها، والهم الذي يحدث بسبب الخوف من المستقبل، فيكون العبد ابن يومه، يجمع جده واجتهاده في إصلاح يومه ووقته الحاضر، فإن جمع القلب على ذلك يوجب تكميل الأعمال، ويتسلى به العبد عن الهم والحزن.

والنبي صلى الله عليه وسلم إذا دعا بدعاء أو أرشد أمته إلى دعاء فهو يحث مع الاستعانة بالله والطمع في فضله على الجد والاجتهاد في التحقق لحصول ما يدعو لحصوله، والتخلي عما كان يدعوه لدفعه، لأن الدعاء مقارن للعمل، فالعبد يجتهد فيما ينفعه في الدين والدنيا، ويسائل ربه نجاح مقصده، ويستعين به على ذلك.

كما قال صلى الله عليه وسلم : «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإذا أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١).

فجمع صلى الله عليه وسلم بين الأمر بالحرص على الأمور النافعة في كل حال ، والاستعانة بالله وعدم الانتقاد للعجز الذي هو الكسل الضار ، وبين الاستسلام للأمور الماضية النافذة ، ومشاهدة قضاء الله وقدره .

وجعل الأمور قسمين : قسماً يمكن العبد السعي في تحصيله أو تحصيل ما يمكن منه ، أو دفعه أو تخفيفه فهذا يبني فيه العبد مجده ويسعى بعملياته .

(١) أخرجه مسلم ٤/٥٢ ، وأحمد ٢/٣٦٦ ، وابن ماجه ١/٣١ . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقد لا يمكن فيه ذلك ، فهذا يطمئن له العبد ويرضى ويسلم ،
ولا ريب أن مراعاة هذا الأصل سبب للسرور وزوال الهم والغم .

(فصل)

ومن أكبر الأسباب لانشراح الصدر وطمأنينته الإكثار من ذكر الله ، فإن لذلك تأثيراً عجياً في انشراح الصدر وطمأنينته وزوال همه وغمه ، قال تعالى :
﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تُطْمَئِنُ الْقُلُوبُ﴾^(١).

فلذكر الله أثر عظيم في حصول هذا المطلوب لخاصيته ، ولما يرجوه العبد من ثوابه وأجره .

وكذلك التحدث بنعم الله الظاهرة والباطنة ، فإن معرفتها والتحدث بها يدفع الله به الهم والغم ، ويحث العبد على الشكر الذي هو أرفع المراتب وأعلاها حتى ولو كان العبد في حالة فقر أو مرض أو غيرهما من أنواع البلاء ، فإنه إذا قابل بين نعم الله عليه التي لا يحصى لها عدد ولا حساب ، وبين ما أصابه من مكروره ، لم يكن للمكرور إلى النعم نسبة .

بل المكرور والمصائب إذا ابتلى الله بها العبد ، وأدى فيها وظيفة الصبر والرضى والتسليم ، هانت وطأتها ، وخفت مؤنته ، وكان تأميم العبد لأجرها وثوابها ، والتعبد لله بالقيام بوظيفة الصبر والرضى ، يدع الأشياء المرة حلوة ، فتنسيه حلاوة أجرها مرارة صبرها .

ومن أنفع الأشياء في هذا الموضع استعمال ما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح حيث قال :
«انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنتظروا إلى من هو

. (١) الرعد / ٢٨ .

فوقكم ، فإنه أجر أن لا تزدوا نعمة الله عليكم»^(١) .

فإن العبد إذا نصب بين عينيه هذا الملحوظ الجليل ، رأه يفوق قطعاً كثيراً من الخلق في العافية وتوابعها ، وفي الرزق وتوابعه ، منها بلغت به الحال ، فيزول قلقه وهمه وغمه ، ويزداد سروره واغباطه بنعم الله التي فاق فيها غيره من هودونه فيها .

وكلما طال تأمل العبد بنعم الله الظاهرة والباطنة ، الدينية والدنيوية ، رأى ربه قد أعطاه خيراً كثيراً ، ودفع عنه شروراً متعددة ، ولاشك أن هذا يدفع الهموم والغموم ، ويوجب الفرح والسرور .

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٢٧٥ ، وأحمد ٢٥٤/٢ ، والترمذى ٤/٦٦٦ ، وابن ماجه ٢/١٣٨٧ من حديث أبي هريرة رضى الله عنه .

(فصل)

ومن الأسباب الموجبة للسرور وزوال الهم والغم : السعي في إزالة الأسباب الجالبة للهموم ، وفي تحصيل الأسباب الجالبة للسرور ، وذلك بنسيان ما مضى عليه من المكاره التي لا يمكنه ردها ، ومعرفته أن اشتغال فكره فيها من باب العبث والمحال ، وأن ذلك حمق وجنون .

فيجاهد قلبه عن التفكير فيها ، وكذلك يجاهد قلبه عن قلقه لما يستقبله ، مما يتوهّم من فقر أو خوف ، أو غيرهما من المكاره التي يتخيّلها في مستقبل حياته . فيعلم أن الأمور المستقبلة مجھول ما يقع فيها من خير وشر ، وأمال وألام ، وأنها بيد العزيز الحكيم ، ليس بيد العباد منها شيء إلا السعي في تحصيل خيراتها ، ودفع مضراتها ، ويعلم العبد أنه إذا صرف فكره عن قلقه من أجل مستقبل أمره ، واتكل على ربِّه في إصلاحه ، واطمأن إليه في ذلك فإذا فعل ذلك اطمأن قلبه وصلحت أحواله ، وزال عنه همه وقلقه .

ومن أنسُف ما يكون في ملاحظة مستقبل الأمور استعمال هذا الدعاء الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه به :

«اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، والموت راحة لي من كل شر»^(١).

وكذلك قوله : «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلي إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت»^(٢).

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٠٨٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد ٥/٤٣ ، وأبوداود ٤/٣٢٤ من حديث أبي بكرة رضي الله عنه . وحسنه العلامة الألباني حفظه الله - انظر صحيح الجامع ٣/١٤٦ ، والكلم الطيب لابن تيمية بتحقيق الألباني / ٧٣ .

فإذا لحج العبد بهذا الدعاء الذي فيه صلاح مستقبله الديني
والدنيوي بقلب حاضر، ونية صادقة، مع اجتهاده فيما يتحقق ذلك،
حقق الله له ما دعاه ورجاه، وعمل له وانقلب همه فرحاً وسروراً^(١).

(١) ومن الأدعية النافعة في ذلك :

أ - حديث ابن عباس رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ربُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ
الْعَرْشِ الْكَرِيمِ». أخرجه البخاري ١٤٥ / ١١ ، ومسلم ٢٠٩٢ / ٤ .

ب - وحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما أصاب عبداً هم ولا
حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيديك، ماضي في حكمك، عدل في
قضاياك، أسألك بكل اسم هولك سميته به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو
استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني وذهاب همي
- إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدلله مكانه فرحاً». أخرجه أحمد ٣٩١ / ١ ، والحاكم ٥٠٩ / ١
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٣٦ / ١٠ (رواه أحمد وأبو يعلى والبزار إلا أنه قال: وذهب غمى مكان
همي ، والطبراني ، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهنمي وقد وثقه ابن حبان)
أ.هـ. وصححه الألباني في تحقيقه للكلم الطيب / ٧٤ .

(فصل)

ومن أدنى الأسباب لزوال القلق والهموم إذا حصل على العبد من النكبات : أن يسعى في تخفيفها بأن يقدرأسوء الاحتمالات التي ينتهي إليها الأمر، ويوطن على ذلك نفسه، فإذا فعل ذلك فليس إلى تخفيف ما يمكن تخفيفه بحسب الإمكان فبهذا التوطين وبهذا السعي النافع، تزول همومه وغمومه، ويكون بدل ذلك السعي في جلب المنافع، وفي دفع المضار الميسورة للعبد .

إذا حللت به أسباب الخوف، وأسباب الأقسام، وأسباب الفقر والعدم لما يحبه من المحبوبات المتنوعة، فليتلق ذلك بطمأنينة وتوطين للنفس عليها، بل على أشد ما يمكن منها فإن توطين النفس على احتمال المكاره، يهونها ويزيل شدتها، وخصوصاً إذا أشغل نفسه بمدافعتها بحسب مقدوره .

فيجتمع في حقه توطين النفس مع السعي النافع الذي يشغل عن الاهتمام بالمصائب، ويجاهد نفسه على تجديد قوته المقاومة للمكاره، مع اعتقاده في ذلك على الله، وحسن الثقة به، ولا ريب أن هذه الأمور فائدتها العظمى في حصول السرور وانشراح الصدور، مع ما يؤمله العبد من الثواب العاجل والأجل، وهذا مشاهد مغرب، وواقعه من جربه كثيرة جداً .

(فصل)

ومن أعظم العلاجات لأمراض القلب العصبية، بل وأيضاً للأمراض البدنية : قوة القلب وعدم انزعاجه وانفعاله للأوهام والخيالات التي تحجبها الأفكار السيئة، لأن الإنسان متى استسلم للخيالات، وانفعل قلبه للمؤثرات من الخوف من الأمراض وغيرها، ومن الغضب والتشوش من الأسباب المؤلمة، ومن توقع حدوث المكاره وزوال المحاب، أوقعه ذلك في الهموم والغموم والأمراض القلبية والبدنية، والانهيار العصبي الذي له آثاره السيئة، التي قد شاهد الناس مضارها الكثيرة.

ومتى اعتمد القلب على الله، وتوكل عليه، ولم يستسلم للأوهام، ولا ملكته الخيالات السيئة، ووثق بالله وطمئن في فضله، اندفعت عنه بذلك الهموم والغموم، وزالت عنه كثير من الأقسام البدنية والقلبية، وحصل للقلب من القوة والانشراح والسرور ما لا يمكن التعبير عنه.

فكما ملئت المستشفيات من مرضى الأوهام والخيالات الفاسدة، وكم أثرت هذه الأمور على قلوب كثير من الأقوياء، فضلاً عن الضعفاء، وكم أدت إلى الحمق والجنون، والمعافي من عافية الله ووفيقه لجهاد نفسه لتحصيل الأسباب النافعة المقوية للقلب، الدافعة لقلقه، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسِيبٌ﴾^(١). أي كافية جميع ما بهم من أمر دينه ودنياه.

(١) الطلاق / ٣.

فالمتوكل على الله قوي القلب لا يؤثر فيه الأوهام ، ولا تزعجه
الحوادث لعلمه أن ذلك من ضعف النفس ، ومن الخور والخوف الذي لا
حقيقة له ، ويعلم مع ذلك أن الله قد تكفل لمن توكل عليه بالكافية
التابعة ، فيثق بالله ويطمئن لوعده ، فيزول همه وقلقه ، ويبدل عسره
يسراً ، وترحه فرحاً ، وخوفه أمنا فنسأله تعالى العافية ، وأن يتفضل علينا
بقوة القلب وثباته بالتوكل الكامل الذي تكفل الله لأهله بكل خير ،
ودفع كل مكرهه وضير .

(فصل)

وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم : «لا يفرك مؤمن من مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر»^(١) فائدتان عظيمتان :

إحداهما : الإرشاد إلى معاملة الزوجة والقريب والصاحب والعامل ، وكل من بينك وبينه علاقة واتصال ، وأنه ينبغي أن توطن نفسك على أنه لابد أن يكون فيه عيب أو نقص أو أمر تكرهه ، فإذا وجدت ذلك ، فقارن بين هذا ، وبين ما يجب عليك أو ينبغي لك من قوة الاتصال والإبقاء على المحبة ، بتذكر ما فيه من المحسن والممقاد الخاصة والعامة ، وبهذا الإغضاء عن المساويء وملاحظة المحسن ، تدوم الصحبة والاتصال وتحصل لك .

الفائدة الثانية : وهي زوال الهم والقلق وبقاء الصفاء والمداومة على القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة ، وحصول الراحة بين الطرفين .

ومن لم يسترشد بهذا الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم ، بل عكس القضية ، فلحظ المساويء ، وعمي عن المحسن ، فلا بد أن يقلق ، ولا بد أن يتکدر ما بينه وبين من يتصل به من المحبة ، ويقطع كثير من الحقوق التي على كل منها المحافظة عليها .

وكثير من الناس ذوي الهمم العالية ، يوطّنون أنفسهم عند وقوع الكوارث والمزعجات على الصبر والطمأنينة ، ولكن عند الأمور التافهة البسيطة يقلقون ، ويتكدر الصفاء ، والسبب في هذا انهم وطنوا أنفوسهم

(١) أخرجه مسلم ١٠٩١ / ٢ ، وأحمد ٣٢٩ / ٢ . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

عند الأمور الكبار، وتركوها عند الأمور الصغار، فضررهم وأثرت في راحتهم.

فالحازم يوطن نفسه على الأمور القليلة والكبيرة، ويسأل الله الإعانة عليها، وأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، فعند ذلك يسهل عليه الصغير، كما سهل عليه الكبير، ويبقى مطمئن النفس ساكن القلب مستريحاً.

(فصل)

العاقل يعلم أن حياته الصحيحة، حياة السعادة والطمأنينة، وأنها قصيرة جداً، فلا ينبغي له أن يقصرها بالهم والاسترسال مع الأكدار، فإن ذلك ضد الحياة الصحيحة، فيشيع بحياته أن يذهب كثير منها نهباً للهموم والأكدار ولا فرق في هذا بين البر والفاجر، ولكن المؤمن له من التحقق بهذا الوصف الحظ الأوفر، والنصيب النافع العاجل والآجل.

وينبغي أيضاً إذا أصابه مكروه أو خاف منه؛ أن يقارن بين بقية النعم الحاصلة له دينية أو دنيوية، وبين ما أصابه من مكروه، فعند المقارنة يتضح كثرة ما هو فيه من النعم، وأضمهلال ما أصابه من المكاره.

وكذلك يقارن بين ما يخافه من حدوث ضرر عليه، وبين الاحتمالات الكثيرة في السلامة منها، فلا يدع الاحتمال الضعيف يغلب الاحتمالات الكثيرة القوية، وبذلك يزول همه وخوفه، ويقدر أعظم ما يكون من الاحتمالات التي يمكن أن تصيبه، فيوطن نفسه لحدوثها إن حدثت، ويسعى في دفع ما لم يقع منها، وفي دفع ما وقع أو تخفيفه.

ومن الأمور النافعة أن تعرف أن أذية الناس لك وخصوصاً في الأقوال السيئة لا تضرك، بل تضرهم، إلا إن أشغلت نفسك في الاهتمام بها، وسougت لها أن تملك مشاعرك، فعند ذلك تضرك كما تضرهم، فإن أنت لم تصفع لها بالاً لم تضرك شيئاً.

واعلم أن حياتك تتبع لأفكارك، فإن كانت أفكاراً فيها يعود عليك نفعه في دين أو دنيا، فحياتك طيبة سعيدة، وإنما فالامر بالعكس.

ومن أنسف الأمور لطرد الهم : أن توطن نفسك على أن لا تطلب الشكر إلا من الله ، فإذا أحسنت إلى من له حق عليك ، أو من ليس له حق ، فاعلم أن هذا معاملة منك مع الله ، فلا تبال بشكر من أنعمت عليه كما قال تعالى في حق خواص خلقه :

﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ، لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جِزاءً وَلَا شُكُورًا﴾^(١).

ويتأكد هذا في معاملة الأهل والأولاد ، ومن قوى اتصالك بهم ، فمتى وطنت نفسك على إلقاء الشر عنهم ، فقد أرحت واسترحت.

ومن دواعي الراحة :أخذ الفضائل والعمل عليها بحسب الداعي النفسي الذي يقلقك ، وتعود على أدراجك خائباً من حصول الفضيلة ، حيث سلكت الطريق المتلوى ، وهذا من الحكمة ، وأن تتخذ من الأمور الكدرة أموراً صافية حلوة وبذلك يزيد صفاء اللذات وتزول الأكدار.

اجعل الأمور النافعة نصب عينيك واعمل على تحقيقها ، ولا تلتفت إلى الأمور الضارة لتلهو بذلك عن الأسباب الجالبة للهم والحزن ، واستعن بالراحة ، واجماع النفس على الأعمال المهمة.

ومن الأمور النافعة : حسم الأعمال في الحال والتفرغ في المستقبل لأنها الأعمال إذا لم تحسن ، اجتمع عليك بقية الأعمال السابقة ، وانضافت إليها الأعمال اللاحقة فتشتد وطأتها ، فإذا حسمت كل شيء بوقته أتيت الأمور المستقبلة بقوة تفكير وقوة عمل .

(١) الإنسان / ٩.

وي ينبغي أن تتخير من الأعمال النافعة للأهم فالاهم ، وميز بين ما
تميل نفسك إليه ، وتشتد رغبتك فيه ، فإن ضده يحدث السامة والمال
والكدر .

واستعن على ذلك بالفکر الصحيح والمشاورة ، فما ندم من
استشار ، وادرس ما تريده فعلا درساً دقيقاً ، فإذا تحققت المصلحة وعزمت
فتوكل على الله ، إن الله يحب المتكلمين^(١) .

تمت هذه الرسالة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) كما قال تعالى : « وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتكلمين »
[آل عمران/١٥٩] .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول : « ما ندم من استخار الخالق ، وشاور
المخلوقين ، وثبت في أمره ، وقد قال سبحانه وتعالي : « وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله »
[آل عمران/١٥٩] وقال قتادة رضي الله عنه : « ما شاور قوم يتغرون وجه الله لا هدوا إلى أرشد أمرهم »
الوابل الصيب / ٩٤ ضمن مجموعة الحديث .

منظومة في السير إلى الله والدار الآخرة★
للشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله

سعد الذين تجنبوا سبل الردى
وتيمموا منازل الرضوان
فهم الذين قد أخلصوا في مشيهم
متشرعين بشرعية الإيمان
وهم الذين بنوا منازل سيرهم
بين الرجا والخوف للديان
وهم الذين ملا الإله قلوبهم
بوداده ومحبة الرحمن
هم الذين قد أكثروا من ذكره
في السر والإعلان والأحيان
فعل الفرائض والنواافل دأبهم
مع رؤية التقصير والنقسان
صبروا النفوس على المكاره كلها
شوقاً إلى ما فيه من إحسان
نزلوا بمنزلة الرضى فهم بها
قد أصبحوا في جنة وأمان
شكروا الذي أولى الخلائق فضلهم
بالقلب والأقوال والأركان

(★) وللناظم شرح لمنظومة طبع ضمن كتاب «المجموع» لمؤلفاته.

صحبوا التوكل في جميع أمورهم
مع بذل جهد في رضى الرحمن
عبدوا الإله على اعتقاد حضوره
فتبوءوا في منزل الإحسان
نصحوا الخلقة في رضى محبوبهم
بالعلم والإرشاد والإحسان
صحبوا الخلائق بالجسم وإنما
أرواحهم في منزل فوقاني
ألا بالله دعوت الخلائق والمشاهد كلها
خوفاً على الإيمان من نقصان
عزفوا القلوب عن الشواغل كلها
قد فرغوها من سوى الرحمان
حركاتهم وهمومهم وعزوفهم
الله لا للخلق والشيطان
نعم الرفيق الطالب السبل التي
تفضي إلى الخيرات والإحسان

**مطابع الجامعية الإسلامية
بالمدينة المنورة**